دور الإخوان الرحمانيين في المقاومة بمنطقة الزيبان
خلال القرن 13 هجري/19 ميلادي

الأستاذ: الأمير بوغدادة

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

تُعَدّ منطقة الزيبان معقل من معاقل الطريقة الرحمانية، التي انتشرت بها خلال القرن (13هـ/ 19م) بفضل جهود بعض شيوخها، الذين بادروا إلى تأسيس زوايا بهذه المنطقة أصبح لها فيما بعد عدد كبير من الأتباع، وهم الذين يعرفون بالإخوان الرحمانيين. وبعد احتلال بسكرة سنة (1260هـ/ 1844م)، هب هؤلاء الإخوان فرادى وجماعات لمقاومة المحتل الفرنسي، إلا أن كل محاولاتهم بآت بالفشل، وذلك راجع لعدة أسباب تطرقنا إليها في الموضوع.

Abstract:

The Alziban area is a stronghold of brotherhood El-Rahmaniya, which spread during the century (13AH / 19 CE) thanks to some elders (sheikhs) efforts, who initiated the founding of Zawias in this region, these Zawias has become later have a large number of followers, and they know as El-Rahmaniya. After the occupation of Biskra (1260 AH / 1844 CE), these Brotherhood individually and collectively try to resist the French occupation, but all their attempts failed for several reasons we talked about it in this study.

مقدّمة:

تعد منطقة الزيبان معقل من معاقل الثورات، منذ أن استولى الاحتلال الفرنسي على أرض الجزائر، بالإضافة إلى كونها مركز من مراكز الطريقة الصوفية الرحمانية ممثلة في زوايا: خنقة سيدي ناجي، والشيخ الجروني، والمختارية بأولاد جلال، والعثمانية بطولقة، و سيدي المصمودي بسيدي المصمودي، هذه الزوايا التي كان لها الفضل في تكوين وتخريج عدد من الإخوان، الذين لعبوا دورا بارزا في المقاومة الوطنية بالمنطقة وغيرها من المناطق، أمثال عبد الحفيظ الخنقي، وسي الصادق بن الحاج زعيم ثورة 1275هـ/ 1858م، والشيخ الهاشمي دردور، وغيرهم من رموز العلم والمقاومة.

أولا: أسباب ودوافع انخراط الإخوان الرحمانيين في المقاومة:

إن كان الثأر لشرف فرنسا، ولشرف قنصلها بيير دوفال (Pierre Deval) و إرضاء المسيحيين، سبب من أسباب احتلال فرنسا للجزائر، كما جاء في التقرير الذي رفعه وزير حربيتها كليرمون تونير (Clermont Tonnerre) إلى ملكه شارل العاشر (Chales X) إبان حملته على الجزائر، حيث قال: "...كان احتلالنا للجزائر أخذا بثأر الإهانة التي لحقت بممثل فرنسا، وإرضاء للمسيحيين، وذلك بإبادة المسلمين أشد أعدائهم طغيانا [1].

فما هي الأسباب والدوافع الحقيقية التي أدت بالإخوان الرحمانيين إلى الاستجابة لنداء المقاومة، والانخراط فيها فرادى وجماعات؟

معظم الكتابات الغربية الموالية لسلطة الاحتلال الفرنسي، اعتبرت انخراط الإخوان الرحمانيين في المقاومة الوطنية بشكل عام، خلال القرن 13هـ/ 19م جاء نتيجة تعصبهم الديني والعرقي، ونتيجة انقيادهم لأوامر أطراف خارجية قدمت من مكة للتشويش على أمن البلاد.

فاوتيي (fawtier) مثلا يرى أن النيران التي اشتعلت في كل أرجاء الجزائر، كانت مدعمة برياح التعصب الديني للإخوان الرحمانيين الذين انتشروا في مصيف جرجرة، ومن حدود المغرب الأقصى إلى حدود تونس، وأنهم جاءوا من مكة لزرع التشويش الديني في الجزائر [2].

وإدوارد دونوفو (Edward de neveu) يقر بأن إخوان بن عبد الرحمان أكثر تعصبا، فعلا يبدون أكثر نفورا من الفرنسيين عن إخوان الطرق الأخرى، و أصبح من السهل تصور الاهتمام الذي يولونه للكفاح الطويل الذي جمعنا بأخيهم عبد القادر [3].

وكذلك فيالا شارون (F. Charon) الحاكم العام الفرنسي في الجزائر، فقد أرسل سنة 1261هـ/ 1845م تعليمة توضيحية ذات مغزى للجنرالات قادة المجموعات، جاء فيها " فبالدراسة المتأنية للأسباب التي أدت إلى الانتفاضات المتعددة التي كان علينا أن نحاربها، نجد أن السبب الرئيس هو التعصب الديني الذي كان من السهل استثارته في شعب جاهل كالشعب العربي، ومستعد أيضا لاحتضان كل ما من شأنه أن يناهض سيطرتنا عن طريق الحقد الذي يغذيه عند المسيحيين [4].

أما الكتابات والدراسات التي تحرى فيها أصحابها الموضوعية لاسيما الجزائرية منها، ترى أن اندفاع هؤلاء الإخوان للمقاومة لم يكن بسبب العاطفة الدينية المتعصبة، وإنما كان بسب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المزرية التي كانوا يعيشونها، وجاء العامل الديني ليدعمها، بالإضافة إلى السلوك السيئ الذي اتبعه الشيوخ والقواد والموظفون، وضباط الجيش الفرنسي تجاه الأهالي عامة، وتجاه أتباع الطريقة الرحمانية خاصة [5].

لكن وإن كنا نقر بهذه الأسباب الأخيرة، ونرى أنها كافية لتدفع بهؤلاء الإخوان للانخراط فرادى وجماعات في المقاومة الوطنية، إلا أن ذلك لا يمنعنا القول بوجود أسباب أخرى خفية ساهمت بقدر كبير في تأجيج روح الجهاد وحب النصر أوالشهادة في سبيل الله عندهم، ودفعتهم للمشاركة بأعداد غفيرة في جل الانتفاضات الشعبية التي عرفتها الجزائر خلال القرن 13هـ/ 19م. وهذه الأسباب نلخصها في النقاط التالية:

1 ـ تواجد الطريقة الرحمانية واستفحالها بصورة خاصة في معظم المناطق التي كانت مسرحا للأحداث بين رجال المقاومة الوطنية، وبين جيوش المحتل الفرنسي، كمنطقة الزيبان والأوراس وجرجرة [6]. والمعروف عن هذه الطريقة أنها ناصبت العداء للمحتل الفرنسي منذ أن وطأت قدماه أرض الجزائر سنة 1246هـ/ 1830م، وهذا العداء لم يكن بسبب التعصب الديني لإخوانها، وإنما هو نتيجة تكوينهم الروحي الرافض لكل ما يهدف إلى سلخهم عن هويتهم الإسلامية، أو يهدف إلى استغلالهم واسترقاقهم، ولذلك نجدهم يندفعون بقوة فرادى أو جماعات ليشاركوا في أغلب ثورات ذلك القرن، ويقومون بأدوار فعالة فيها [7].

رغبة الإخوان الرحمانيين في المبادرة بإعلان الثورة على المحتل، والانخراط في كل مقاومة تعلن ضده، حتى يكون لهم فضل الأسبقية على بقية إخوان الطرق الأخرى في الجهاد والفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. لذلك نجدهم يندفعون اندفاعا فرادى أو جماعات للمشاركة في المقاومة حتى وإن كان قادتها من أتباع طرق صوفية غير رحمانية، مثلما حدث في مقاومة الأمير عبد القادر حيث شاركوا بقوة و بأعداد غفيرة [8].

التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية بالجزائر، ويتجلى ذلك من خلال استهداف إدارة الاحتلال لشيوخ الزوايا في المناطق التي يتواجد بها

العنصر الأمازيغي كجرجرة والأوراس والزيبان، وذلك في محاولة منها لإيجاد واقع رافض للانتماء الحضاري العربي الإسلامي.

ولأجل ذلك سلطت العقاب على مريدي الطرق الصوفية وشيوخ الزوايا الذين انتفضوا ضدها في تلك المناطق، فأعدمت بعضهم كالشيخ بوزيان زعيم ثورة الزعاطشة، وسجنت بعضهم الأخر أو نفته كما فعلت مع الشيخ سي الصادق بن الحاج مقدم الطريقة الرحمانية بجبال أحمر خدو، والشيخ الهاشمي دردور مقدم الطريقة الرحمانية بمنطقة وادي عبدي بالأوراس [9].

وكان نصيب الإخوان الرحمانيين من هذا العقاب هو الأكبر مقارنة بغيرهم، لكونهم انتبهوا لما يراد لهم و يخطط لأبنائهم، فأعلنوها في وجه المحتل مقاومة إسلامية وانتفاضة وطنية.

وقد يكون ما ماورد عن ادوارد دونوفو (Edward de neveu)، من أن الطريقة الرحمانية، هي الطريقة الوحيدة التي استطاعت أن توحد العرب والأمازيغ تحت راية دينية واحدة [10]، هو أحد الأسباب التي دفعت بالمحتل الفرنسي إلى أن يجعل من هذه الطريقة، ومن إخوانها هدفا لآلته التدميرية.

4 ـ خطط الاندماج والتنصير، التي كان يدبرها جنرالات فرنسا وغلاة المثقفين من رجال الكنيسة والتعليم، وتتضح جلية من خلال تصريحاتهم، فالجنرال بيجو (Bugeau) أدلى بتصريح أمام الأب بريمو (Brimo) عندما سلمه أطفالا جزائريين ليعمدهم جاء فيه: " حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار [11].

كما أوضح أيضا الفائدة العظيمة لسياسة الاندماج والتنصير على الاستعمار الفرنسي بقوله" إن العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين" [12].

أما الكاردينال لافيجري (lavigerie) لم يخف نواياه ضد الإسلام والمسلمين في أول تقرير أرسله إلى الحكومة الفرنسية بعد تعيينه مطرانا على أسقفية الجزائر سنة 1281هـ/ 1867م، وجاء فيه " إن إدخال الأهالي للديانة المسيحية واجب مقدس ينبغي أن نرقي هذا الشعب، ولنضرب صفحا على غلطات الماضي، فأول ما يجب علينا معهم هو الحيلولة بينهم وبين القرآن، بدلا من غلطات أخرى كإحياء مملكة عربية. ينبغي لنا على الأقل أن نهتم بالصبيان، فندخل في عقولهم تعاليم جديدة ألا وهي تعاليم الإنجيل، فبعد ذلك يمكننا الاختلاط بهم و إلا فلنبعدهم إلى الصحراء، بعيدين عن الشعب المتمدن [13].

ومن أجل تحقيق هذه الخطط سعى هؤلاء المنصرون إلى تمسيح الوسط قبل تمسيح الروح، فحاولوا محو مظاهر الديانة الإسلامية من المجتمع الجزائري، إذ قاموا ببناء كنائس وأسقفيات أسندوا لها مهمة نشر تعاليم المسيحية، كما قاموا بتمسيح بعض المؤسسات الدينية الإسلامية كالمساجد و الزوايا، وتدمير بعضها الأخر أو تحويلها إلى أغراض أخرى. كما تم نفي علماء الدين وأبطلت شرعية المواسم الإسلامية، وأرغم الأئمة على إلقاء خطب الجمعة باسم فرنسا، إضافة إلى إخضاع القضاء الإسلامي للقضاء الفرنسي، وقد تم ذلك بعد قرار سنة 1246هـ/ 1830م في عهد الجنرال كلوزيل [14].

وقد تفطن الإخوان الرحمانيون لهذه الخطط والمشاريع، التي كانت تستهدفهم قبل غيرهم لأن المناطق التي وقع عليها الاختيار لتنفذ فيها، كانت بمثابة معاقل للطريقة الرحمانية، كجرجرة والأوراس والزيبان، لذلك أعلن هؤلاء الإخوان المقاومة وانخرطوا فيها، حتى يتصدوا لهذه الخطط والمشاريع ويوقفوها.

5 ـ إدعاء وانتحال شخصية المهدي المنتظر، الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم، من قبل بعض زعماء المقاومة الوطنية، الذين ينتمون أو يدعون الانتماء

للطريقة الرحمانية، كان أحد الأسباب التي دفعت بالإخوان الرحمانيين للارتماء والانخراط فرادى وجماعات، وبأعداد غفيرة في تلك المقاومة.

وكمثال عن هؤلاء الزعماء الشيخ محمد أمزيان مقدم الطريقة الرحمانية بمنطقة الأوراس، وزعيم ثورة 1296هـ/ 1879م، الذي بعث برسالة إلى شيخ الطريقة الرحمانية بمنطقة عين مليلة، يدعوه فيها إلى استنفار الإخوان بالمنطقة، للجهاد والمشاركة في ثورته التي يقودها بصفته المهدي المنتظر [15].

ثانيا: دور الإخوان الرحمانيين في المقاومة:

بعد سقوط مدينة قسنطينة في يد القوات الفرنسية، خلال سنة 1253هـ/ 1837م، قرر الحاج أحمد باي ـ بإيعاز وضغط من خاله بوعزيز بن قانة ـ أن يتوجه إلى الجنوب وبالضبط إلى بسكرة، لمحاربة شيخ العرب ـ المعزول ـ فرحات بن سعيد، والتخلص منه بدعوى أن هذا الأخير يهددهم من مكان تواجده، ثم التفرغ بعد ذلك لمحاربة الفرنسيين واسترجاع قسنطينة [16]، هنا بدأ يبرز دور الإخوان الرحمانيين في هذا الصراع وفي المقاومة بالمنطقة فيما بعد، حيث انقسموا بين مؤيد لفرحات بن سعيد، مثلما هو الحال بالنسبة للحسن بن عزوز الذي هو من أسرة صوفية تنتمي إلى زاوية الدراج الرحمانية، التي جمعت بين المهام العلمية والطرقية المرابطية [17]، وكان يشغل منصب كاتب خاص لفرحات بن السعيد [18].

وبين مؤيد للحاج أحمد باي كما هو حال البوازيد، الذين هم من أتباع الطريقة الرحمانية و اختاروا الانضمام إلى هذا الأخير. وقد يكون اختيارهم هذا، جاء نتيجة كون الحاج أحمد باي يمثل مشروع المقاومة والجهاد ضد الغزاة الصليبيين، وهو ما يتلاءم مع مبادئ الطريقة الرحمانية، التي رفعت لواء هذا المشروع منذ أن وطأت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر سنة 1246هـ/ 1830م، عكس فرحات بن سعيد الذي لم يكن في نظر هؤلاء إلا شخصا أنانيا يبحث عن

المصلحة الشخصية، والآنية، والحفاظ على منصبه، لا سيما و أنه راسل القائد العام الفرنسي دوروفيكو عام 1248هـ/ 1832م، عارضا عليه المساعدة لمحاربة الحاج احمد باي [19]. كما سبق له أيضا أن بعث برسالة إلى الجنرال فوارول مكتوبة بلون الدم، دلالة منه على استعداده الكامل للتضحية في سبيل إعلاء مجد فرنسا وقهر الحاج أحمد باي [20].

وعليه فحينما قرر الحاج أحمد باي التعسكر بزاوية سيدي رحال بين فوغاله والعامري، استعدادا لمواجهة فرحات بن سعيد وقام هذا الأخير بالاستنجاد بأولاد نايل لدعمه، فأمدوه بحوالي خمس مائة رجل، تحرك البوازيد وقطعوا الطريق أمام هؤلاء الرجال وهاجموهم فقتلوا منهم حوالي خمسون رجلا، وقد جاء تحركهم هذا نجدة للحاج أحمد باي، الذي تمكن بفضل هذه المساعدة من هزم فرحات بن سعيد، وقتل حوالي ست مائة من أتباعه، مما دفع به إلى طلب الدعم والمساعدة من الفرنسيين لملاحقة الحاج أحمد باي، غير أن الفرنسيين ماطلوه ولم يجيبوه [21].

وبطلبه الدعم والمساعدة من الفرنسيين، يكون فرحات بن سعيد قد أكد شكوك البوازيد فيه، وأبان عن نيته وشخصيته اللا وطنية، التي جعلت معظم أتباع الطريقة الرحمانية يفضلون الانضمام إلى الحاج أحمد باي بدلا من الانضمام إليه، وربما حتى أقرب المقربين منه انفضوا من حوله، وانقلبوا عليه بسبب تصرفه هذا مثلما فعل كاتبه الخاص الحسن بن عزوز، الذي طلب من الأمير عبد القادر أن يعينه خليفة له على منطقة الزيبان، بدلا من أن يطلب ذلك لفرحات بن سعيد الذي أرسله رفقة أخيه الحاج باي إلى الأمير عبد القادر من أجل هذا الغرض [22].

حتى وإن علمنا أن الحسن بن عزوز كان هو رسوله وسفيره إلى الدوق دوروفيقو (duc de Rovigo) سنة 1248هـ/ 1832م [23]. غير أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه كان موافقا وراضيا على ما يقوم به فرحات بن سعيد، إذ أن قبوله

تولي هذه المهمة، قد يكون ناتجا عن خوفه من بطش فرحات بن سعيد ضده وضد أفراد عائلته في حالة رفضها، أو ناتج عن خطأ وقع فيه هذا الشخص الذي هو بشر كبقية البشر غير معصوم عن الأخطاء، لكنه قرر أن يتوب عن خطئه لاسيما وأنه سليل أسرة صوفية رحمانية تخرج على يدها كثير من أبطال المقاومة الوطنية.

وما يؤكد توجهنا هذا هي تلك المهمة التي حملها على عاتقه بمجرد تعيينه خليفة للأمير عبد القادر على منطقة الزيبان، والمتمثلة في محاربة الفرنسيين وأعوانهم [24].وحتى بعد أن عزله الأمير عبد القادر من منصبه هذا، ونصب مكانه فرحات بن سعيد الذي قتل في ظروف غامضة [25].

لم يستسلم الحسن بن عزوز للقوات الفرنسية، ولم يعرض عليها التعاون معها لمحاربة الأمير عبد القادر والانتقام منه، بل ظل معتصما بالمناطق الشمالية الجبلية حول المسيلة، يشن الهجمات على هذه القوات، إلى أن ألقي عليه القبض من طرف قبائل المنطقة، التي سلمته للخليفة أحمد المقراني بمجانة، فسلمه بدوره إلى السلطة الفرنسية، التي نفته إلى جزيرة سان مارقوريت (Saint Marguerite) التي وصل إليها سنة 1257هـ/ 1841م، وبقي فيها حتى مطلع عام 1260هـ/ 1844م، أين أعيد إلى مدينة عنابة بالجزائر، وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى توفي عام 1263هـ/ 1847م [26].

غير أن إلقاء القبض على الحسن بن عزوز ونفيه، لم ينه دور ونشاط الإخوان الرحمانيين، الذي أضحى في وتيرة متزايدة ومتسارعة، بتزايد وتسارع الأحداث والمخاطر المحدقة بالمنطقة، فقد استعان بهم الأمير عبد القادر مرة أخرى بعد مقتل فرحات بن سعيد الذي لم يكن من أسرة صوفية [27]. وقام بتعيين محمد الصغير بن أحمد بن الحاج مقدم الطريقة الرحمانية بسيدي عقبة، خليفة له على منطقة الزيبان سنة 1257هـ/ 1841م [28].

وقد كانت هذه الاستعانة من الأمير عبد القادر بالرحمانيين لاستعدادهم وتأهبهم للجهاد أكثر من غيرهم [29].

وبعد أن انسحب محمد الصغير بن أحمد بن الحاج من مدينة بسكرة، قبيل احتلالها من طرف القوات الفرنسية بقيادة الدوق دومال (Duc d'Aumale) عام 1260هـ/ 1844م اتجه صوب قرية مشونش [30]، التي تقع شرق شمال بسكرة وتبعد عنها بحوالي 30كم [31]، أين استقبله سكانها الذين هم من أتباع الطريقة الرحمانية بحفاوة، وعاهدوه على الجهاد إلى جانبه لا سيما وأن العدو واحد ومشترك بينهما، ويستعد لمد سيطرته إلى الواحات المجاورة لبسكرة، وفي مقدمتها واحة مشونش، التي هي بوابة الأوراس من الناحية الجنوبية، مما يعني للعدو إحكام سيطرته على هذه المنطقة، بعد أن يكون قد أحكم سيطرته على منطقة الزيبان بأكملها [32].

وحينما قرر الدوق دومال (Duc d'Aumale) تعقب محمد الصغير بن أحمد بن الحاج، واقتحام قرية مشونش، سارع الشيخ الصادق بن الحاج مقدم ومؤسس الزاوية الرحمانية بجبل أحمد خدو إلى نجدته ونجدة الأهالي هناك [33]، مما مكنهم من صد هجوم القوات الغازية، وإلحاق الهزيمة بها بعد أن كبدوها خسائر فادحة في معركة دامت يوما كاملا [34]، في الوقت الذي كان فيه الدوق دومال(Duc d'Aumale) يظن حسب تكهناته الواهمة، أنها لا تتجاوز بضع ساعات [35].

لقد زاد هذا الانتصار من عزيمة الإخوان الرحمانيين، ورفع معنوياتهم كما أكسبهم ثقة كبيرة بأنفسهم، فراحوا يلعبون أدوارا رئيسة في كل الثورات التي تلت هذه المعركة. ففي سنة 1262هـ/ 1846م قام الشيخ المختار الجيلالي، شيخ زاوية أولاد جلال الرحمانية باستقبال وإيواء الشيخ الشريف بومعزة زعيم ثورة 1260هـ/ 1844م بمنطقة الونشريس، وأعلن عن مساندته المطلقة له، ووقوفه بجانبه في ثورته ضد المحتل الفرنسي، وأخذ يقوم بتعبئة السكان وبحثهم على الجهاد.

مما جعل السلطات الفرنسية ترسل حملة عسكرية إلى أولاد جلال بقيادة الجنرال هيربيون (Général Herbillon) سنة 1263هـ/ 1847م انطلاقا من مدينة باتنة، غير أن هذه الحملة لقيت مقاومة شديدة من قبل السكان، تكبدت القوات الفرنسية خلالها خسائر كبيرة أبرزها الرائد بيون(Commandant Billon)، مما دفع بقائد الحملة إلى إعطاء الأوامر لقواته باستعمال كل ما تملك من الوسائل، لمواجهة هذا الموقف وإنهاء الانتفاضة بأقصى سرعة قبل أن تنتقل شرارتها إلى أماكن ومناطق أخرى. ولم يطلع فجر اليوم السابع للحملة، حتى كانت القوات الفرنسية قد حسمت المعركة لصالحها [36].

إلا أن هناك من الباحثين من يرى أن المنطقة ظلت صامدة، وبقيت مستعصية على الغزاة حتى قيام ثورة الزعاطشة عام 1265هـ/ 1849م [37]. هذه الأخيرة التي تولى تفجيرها وزعامتها أحد الطرقيين بالمنطقة وهو الشيخ بوزيان، الذي قال عنه بعض المؤرخين أنه كان رحمانيا في حين يرى آخرون أنه درقاويا [38]، وقد ثار في وجه السلطة الفرنسية بسبب الضرائب الباهظة التي فرضتها على النخيل، وبسبب ما يقوم به ضباط المكاتب العربية والقيادات العملية من إحصاء للسكان والأملاك، ومراقبة التجارة والأسواق، وتنقل الأشخاص ومراقبة الزوايا، وزيارات الإخوان، والتدخل في شؤون القضاء والإسلام والتعليم [39].

وقد لبى الرحمانيون نداء الجهاد الذي أطلقه الشيخ بوزيان، وكانوا من الأوائل الذين شاركوا في هذه الثورة، يتقدمهم الشيخ المختار الجيلالي والشيخ عبد الحفيظ الخنقي مقدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدي ناجي،الذي دعا بدوره إلى الجهاد وشارك في الثورة رغم تقدم السن به واستشهد أثناءها [40]، كما شارك في هذه الثورة الشيخ الصادق بن الحاج، مؤسس زاوية لقصر بجبل أحمر خدو ومقدم الطريقة الرحمانية بها، الذي استنفر بدوره جميع أتباعه ومريديه وحثهم على الجهاد إلى جانب الشيخ بوزيان [41].

ولما انتهت ثورة الزعاطشة بالفشل تأثر كثيرا الشيخ الصادق بن الحاج، وتأسف لمصيرها المؤلم، كما تألم أيضا لاستشهاد الشيخ بوزيان الذي قتل بطريقة وحشية، حيث قطع رأسه ورأس ابنه الصغير، وخربت واحته عن آخرها [42]، مما زاد في كراهية وعداء الشيخ الصادق بن الحاج لفرنسا، وجعله يحس بروح الانتقام لشهداء الزعاطشة وغيرهم، فراح يهيئ الظروف والأسباب، ويعد العدة، ويشحذ الذمم لإعلان الجهاد والثورة على فرنسا، وكان يخطب في أتباعه ومريديه الذين هم من الإخوان الرحمانيين، خطبا مستلهمة من الوازع الديني، يدعو من خلالها إلى الجهاد ضد الكفار الذين استولوا على أرض الإسلام بقوة الحديد والنار، واعتدوا على المسلمين فقتلوهم وشردوهم وانتهكوا حرماتهم، وسلبوا أموالهم وأعراضهم [43].

وكان ابنه إبراهيم يكتب الرسائل باسم أبيه، ويبعث بها إلى أهل المناطق المحيطة بجبل أحمر خدو، يدعوهم فيها إلى الاستعداد للجهاد والانضمام للثورة التي سيعلنها والده، وحدث أن بعث برسالة مع أحد مريدي والده يعرف باسم بوغريب إلى قرية سيدي عقبة، وعندما حاول هذا الأخير أن يقرأ الرسالة أمام الناس في سوق القرية، اعترض سبيله مجموعة من الناس، وحاولوا الاعتداء عليه مما جعله يفر إلى دار مقدم الزاوية الرحمانية بسيدي عقبة ويحتمي بها، هنا انكشف أمره وأمر سيده سي الصادق بن الحاج، فقررت فرنسا القضاء على الثورة في مهدها، فأرسلت الجنرالين قاستو (Gasto) وديسفو (Desvaux) في حركة منسقة، مكنتهم من الالتفاف بالثوار الذين لم يستكملوا بعد تنظيمهم، فكان اللقاء بين الطرفين في قرية مشونش، أين جرت المعركة الحاسمة التي كان الانتصار فيها من نصيب الفرنسيين [44].

أما عن نتائج هذه الثورة فقد كانت وخيمة جدا على أهل المنطقة بصفة عامة، وعلى الشيخ سي الصادق بن الحاج وأبنائه ومريديه من أتباع الطريقة

الرحمانية بصفة خاصة، حيث تعرضت زاويته للهدم والتدمير، كما تعرضت قرية لقصر التي تقع بها الزاوية إلى التخريب، بعد أن استولى الغزاة على كل ما كان بها من مؤن وغنم وبقر وخيول، بالإضافة إلى ما سلطوه على الشيخ سي الصادق وأبنائه من تعذيب وسجن ونفي وتشريد داخل الوطن وخارجه [45].

إلا أن هذا الأسلوب الوحشي الذي استخدمه المحتل وتعامل به مع الثوار، لم يمنع من اندلاع ثورة أخرى سنة 1290هـ/ 1876م في واحة العامري، التي تقع على بعد 48كلم جنوب غرب مدينة بسكرة [46]، وكانت بزعامة المقدم الرحماني أحمد بن عياش [47]، شيخ آل جابري أو الجبابرة، والشيخ أحمد يحي بن محمد شيخ أولاد إدريس [48]، وأبدى السكان خلالها بطولة وشجاعة رغم قلة إمكانياتهم المادية والبشرية [49].

وكادت أن تتحول إلى حرب طويلة المدى لولا تدخل القوات الفرنسية بسرعة وبأعداد كبيرة لتطويقها وإخمادها، لاسيما بعد أن تمكن الشيخ أحمد بن عياش من ربط اتصال بشيوخ آخرين لهم وزنهم بالمنطقة وأقنعهم بدعم الثورة، كالشيخ بن بريكة شيخ أولاد مسعود، والشيخ بلحاج بن محمد بن سالم شيخ أولاد أيوب، بالإضافة إلى شيخ زاوية متليلي بالشعانبة [50].

ولكن مصيرها كان الفشل كبقية الثورات التي سبقتها، حيث قتل الشيخ أحمد يحي بن محمد وأسر الشيخ أحمد بن عياش مع مجموعة من الثوار، وقدموا للمحاكمة فحكم عليهم بالإعدام ثم عوض بالمنفى، وفرضت عليهم غرامة مالية تقدر 192.200 فرنك فرنسي، وصودرت جميع ممتلكاتهم. أما الواحة فقد خربتها قوات الجنرال كارتيري (Carteret) وهدمت دورها، وهجرت أهلها إلى التل الوهراني أين تعرضوا إلى مجاعات فضيعة، ونكبات اقتصادية واجتماعية حادة [51].

وفي سنة 1293هـ/ 1879م، ثار الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمان في الجهة الغربية من جبال الأوراس، وأعلن الجهاد المقدس ضد السلطة الفرنسية وأعوانها ، وكان هذا الشيخ إماما بجامع قرية الحمام [52]، وشيخا للزاوية الدينية بها، وهو من مقدمي الطريقة الرحمانية بالمنطقة، وتلميذ الشيخ إبراهيم بن سي الصادق بن الحاج، كما كان يكثر من زياراته لزاوية تيبرماسين الرحمانية التي أسسها الشيخ إبراهيم بعد خروجه من السجن [53]، مما يجعلنا نعتقد أن يكون قد تأثر بما لحق بشيخه وأفراد عائلته وزاويتهم الأصلية بلقصر عقب ثورة 1275هـ/ 1858م، فقرر أن ينتقم لهم جميعا.

مهما تكن الأسباب التي من أجلها أعلن الشيخ محمد أمزيان ثورته، فإنه عمل جاهدا ليمد رقعتها إلى المناطق المجاورة، لا سيما منطقة الزيبان وعليه قام بمراسلة مقدمي الطرق الصوفية، وبالأخص الطريقة الرحمانية في هذه المنطقة يحثهم على الانخراط في الثورة، والجهاد ضد فرنسا، وتمكن من حشد عدد كبير من الثوار، وبالأخص من جبل أحمر خدّو الذي هب سكانه للمشاركة في الثورة، وفي مقدمتهم أولاد سيدي محمد [54]، كما تمكن أيضا من أن يمد رقعتها إلى منطقة الزيبان، على اعتبار أن الثورة وصلت إلى قرية تكوت وما جاورها، وتكوت كانت آنذاك تابعة إداريا لدائرة بسكرة العسكرية [55].

لكن رغم هذا التوسع، ورغم الإمدادات التي وصلت إلى الثوار من قبل سكان المناطق المجاورة، ومن قبل الإخوان الرحمانيين بالدرجة الأولى، فإن الثورة كان مصيرها كمصير بقية الثورات التي سبقتها، وهو الفشل نظرا لعدم تكافؤ القوة بين الطرفين.

ثالثا: تقييم دور الإخوان الرحمانيين في المقاومة:

لقد رمى هؤلاء الإخوان بكل ثقلهم فرادى وجماعات في المقاومة الوطنية بمنطقة الزيبان خلال القرن 13هـ/ 19م، وكان انخراطهم على هذا الشكل حدثا

بالغ الأهمية بالنسبة للمقاومة نفسها، وبالغ الخطورة بالنسبة لسلطات الاحتلال الفرنسي، بحيث تحولت إستراتجية الحرب وأساليبها وتغير طابعها. إذ كانت في البداية عبارة عن امتداد لمقاومة الحاج أحمد، ثم مقاومة الأمير عبد القادر، لكن سرعان ما تحولت من بعدهما إلى انتفاضات شعبية عارمة، يقودها طرقيون وشيوخ زوايا لا صلة لهم بالنظم الإدارية الحديثة، ولا بالمظاهر الأوروستقراطية، ولا يفقهون في السياسة سوى فقه المقاومة، التي يرون فيها واجب مقدس لا بد من الإتيان به، لأنه يفضي في النهاية إلى الفوز بأحد الحسنيين النصر أو الشهادة.

وكان من المفروض، أن تكون النتائج في مستوى هذه الخطورة من الجانب الايجابي للوطن ومستقبله بصفة عامة، وللمنطقة بصفة خاصة. لكن الذي حدث هو العكس، إذ أن إخفاقات الإخوان كانت تأتي بصورة سريعة شبيهة بطريقة انخراطهم في المقاومة عقب كل ثورة يعلنوها في وجه المحتل، وذلك من الأمور التي عجلت بوضع حد لدورهم و نشاطهم في المقاومة بمنطقة الزيبان، فما هي الأسباب يا ترى؟.

للإجابة عن هذا السؤال فلا يمكن أن نكتفي بما يتداول في كتب التاريخ، من أن سبب الإخفاق في جميع الانتفاضات يعود إلى جملة من العوامل المتشابهة، كتفوق العدو في العدة والعتاد، وامتلاكه لخطط حربية مرنة تسمح له بالمناورة عند اللزوم، بالإضافة إلى التأطير والتنظيم المحكم لجميع وحداته العسكرية على خلاف الثوار الذين يفتقرون لكل ذلك. إذ توجد عوامل أخرى ربما تكون جزءا من الإجابة، وسنلخصها في النقاط التالية:

1 ـ الإخوان الرحمانيون انتفضوا انتفاضة الجريح في دينه وكرامته ووطنه، ولكن بدون نظام، وكان على رأسهم مرابطون وطرقيون يدعون أنهم من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك تسموا باسمه محمد بن عد الله، أو يدعون أنهم رأوه

في المنام وبشرهم بالنصر على المحتل الكافر، كما ادعى بعضهم أنه المهدي المنتظر وأن النصر حليفه [56].

فحملوا راية الجهاد لكي يتبعهم الأتباع ويتحمسون للشهادة وقتال العدو، إلا أنه بمجرد ما أن يقتلوا أو يؤسروا ويسجنوا، حتى يتفرق شمل الإخوان ويتشتت صفهم وتنهار قواهم وتتثبط عزائمهم، لأنه كان من المفروض أن لا يكون هذا هو مصير زعمائهم، الذين بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ حسب زعمهم ـ بالنصر.

2 ـ انعدام التكوين العسكري عند معظم الإخوان، وافتقارهم إلى الخبرة القتالية التي تسمح لهم بقيادة المقاومة، أو الانخراط فيها ومواجهة عدو يمتلك خططا حربية متطورة، ويمتاز بالتنظيم المحكم و التأطير الجيد.

3 ـ إلقاء الإخوان الرحمانيين بكل ثقلهم في معركة واحدة، واعتمادهم على أسلوب المواجهة مع عدو يفوقهم عددا وعدة وتنظيما، مما كان يحدث خسارة كبيرة في صفوفهم، ويؤدي إلى انهيار معنوياتهم، ويسرع من إخفاقهم في مواصلة المقاومة.

4 ـ عجزهم عن إيجاد، وتعيين قائد بديل عن مفجر الثورة في حالة ما استشهد في المعركة، أو أسر من طرف العدو.

الخاتمـة:

مما تقدم نخلص إلى القول أن الأسباب الحقيقية التي دفعت بالإخوان الرحمانيين إلى المقاومة، تتمثل في التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية بالجزائر، وخطط الاندماج والتنصير، التي كان يدبرها جنرالات فرنسا وغلاة المثقفين من رجال الكنيسة والتعليم.

وقد لعب هؤلاء الإخوان دورا هاما في هذه المقاومة، حيث كانوا كالوقود الذي يمدها بالطاقة اللازمة كلما كانت بحاجة إليه، مما جعل نارها تضل مشتعلة في وجه المستعمر، و يتعطل بذلك تقدمه بمنطقة الزيبان لعدة سنوات، وتفشل جميع مشاريعه وخططه الاندماجية والتنصيرية.

وإني لا أحسب نفسي على خطأ إن قلت، فالدور الأكبر في هذه المقاومة بشقيها العسكري والفكري، كان على عاتق هؤلاء الرجال، الذين كانوا يستمدون قوتهم من الدين الإسلامي، وكانت وسيلتهم التعليم والقيام بالجهاد. وأنه كلما زاد ضغط الاحتلال عليهم، وتمعنت قواته في اضطهادهم وتشريدهم، كلما ولد ذلك عندهم رد فعل وطني، انعكس في تلك الثورات التي قادوها ضده خلال ذلك القرن، أو شاركوا فيها في القرن الموالي له. حتى و إن لم تكن هذه الثورات لتفضي إلى نتائج إيجابية على مستقبلهم، ومستقبل المنطقة والوطن بصفة عامة، إلا أنها كانت تربك العدو وتقلقه وتؤخر عليه مشاريعه، كما أنها كانت تبعث روح الجهاد وتجدده في نفوس الأتباع كلما أصابهم ضعف ووهن.

هوامش البحث

(1) نقلا عن: أحمد إسماعيل راشد، **"المقاومة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي"، البيان**، مجل.3، العدد4، جامعة آل البيت، عمان ـ الأردن، 1423هـ/ 2002م، ص ـ ص. 138 ـ 139

(2) Fawtier , **L Autonomie Algerienne Republique et Federale**, Constantine, Marl, 1871, P – P. 3 – 8.

(3) دوارد دونوفو، **الإخوان**، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2003، ص.72.

(4) نقلا عن: ايفون تيران، **المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس و الممارسات الطبية و الدين 1830 ـ 1880)**، ترجمة: محمد عبد الكريم أوزغلة، المراجعة والإشراف: مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص.144

(5) يحي وعزيز، **المرجع السابق**، ص ـ ص. 257 ـ 265

(6) إسماعيل حنفوق، **دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس 1844-1931**، ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2010 ـ 2011، ص.78

(7) الجلالي سلطاني، " **دور الرحمانيين في المقاومة الوطنية** "، **أعمال الملتقى الوطني الثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية**، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص. 187.

(8) شارك الإخوان الرحمانيون بالنفس والنفيس في مقاومة الأمير عبد القادر، فقدموا مساعدات من المال والرجال. يراجع: ادوارد دونوفو، **مصدر سبق ذكره**، ص. 72.

(9) ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وأفاق**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص ـ ص. 63ـ 69.

(10) ادوارد دونوفو، **المصدر السابق**، ص. 73

(11) نقلا عن: صالح عوض، **معركة الإسلام والصليبية في الجزائر من سنة 1830 إلى سنة 1962**، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992، ط . 2، ص. 208

(12) نقلا عن: سعيد علوان، **التنصير و موقفه من النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر**، دكتوراه دولة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، الجزائر، 2001، ص. 112.

(13) نقلا عن: المهدي البوعبدلي، " **الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي** "، **الأصالة**، العدد8، الجزائر، ماي/ جوان 1972، ص. 312

(14) أحميدة عميراوي، سليم زاوية، محمد السعيد قاصري، **السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844 ـ 1916**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة ـ الجزائر، 2009، ص. 105.

(15) مسعود عثماني، **أوراس الكرامة أمجاد وأنجاد**، دارالهدى، عين مليلة ـ الجزائر، 2008، ص.130

(16) محمد العربي الزبيري، **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص ـ ص.76 ـ 78

(17) أحميده عميراوي، **من تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2004، ط.2، ص.162

(18) إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 ـ 1934**، دار هومه، الجزائر، 2005، ص.31

(19) أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال**، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ط.خـ، ص.96 ويراجع أيضا:

Charles FERAUD, **'Les BEN-DJLLAB'**, **Revu Africaine**, n°24, p.299..

نشير هنا إلى أن الأمير عبد القادر ذاته لم يكن يثق في شخص فرحات بن سعيد، وفي ولائه له بدليل أنه حينما عينه خليفة له على منطقة الزيبان خلفا للحسن بن عزوز سنة1840م، إشترط عليه أن يترك أفراد عائلته عنده كرهائن حتى يضمن عدم خداعه له، وإستسلامه للفرنسيين مرة أخرى. يراجع: إبراهيم مياسي، **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصرة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص.56.

(20) للاطلاع على هذه الرسالة ينظر: عبد الحميد زوزو، **محطات في تاريخ الجزائر (دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية على ضوء وثائق جديدة)**، دار هومة، الجزائر، 2004، ص.128.

(21) إبراهيم مياسي، "**خلفاء الأمير عبد القادر بالزيبان**"، **المجلة الخلدونية**، العدد 03، الجمعية الخلدونية، بسكرة ـ الجزائر، 2004، ص.65.

(22) إبراهيم مياسي، "**خلفاء الأمير عبد القادر بالزيبان**"، ص.66.

(23) Cahrles FERAUD, **op.cit**, p.299.

(24) فيما يتعلق بتعيين الحسن بن عزوز خليفة على منطقة الزيبان، والمهام التي كلف بها يراجع: يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، جـ.1، دار الهدى، عين مليلة ـ الجزائر، 2009، ص ص.461 ـ 462.

(25) محمد العربي الزبيري، **مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي**، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1972، ص ص.21 ـ 23.

(26) أحميده عميراوي، **من تاريخ الجزائر الحديث**، ص.164. ويراجع أيضا: يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب** ، ص.463

(27) محمد شرقي، **الطريقة الرحمانية ودورها في المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي مع بعض الطرق الأخرى (1830-1881م)**، ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية ـ قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1996 ـ 1997، ص ـ ص.221 ـ 222.

(28) إبراهيم مياسي، "**خلفاء الأمير عبد القادر بالزيبان**"، ص.76.

(29) محمد شرقي، **مرجع سبق ذكره**، ص.221

(30) فوزي مصمودي، "**معركة مشونش ببسكرة 1844 الخالدة**"، **المجلة الخلدونية**، العدد 03، الجمعية الخلدونية، بسكرة ـ الجزائر، 2004، ص.136

(31) محمود الواعي، "**نبذة عن حياة الشيخ الصادق بن الحاج وبعض معاركه الحربية ضد الاحتلال الفرنسي**"، **تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837-1954**، جمعية أول نوفمبر، دار الشهاب، باتنة ـ الجزائر، (د.ت.ط)، ص.191

(32) محمد العيد مطمر، "**الاحتلال الفرنسي للأوراس**"، **أضواء الأوراس التاريخية**، 2006، ع.ت، ص.39.

(33) عبد الحليم صيد، **أبحاث في تاريخ الزيبان**، مطبعة سوف، الوادي ـ الجزائر، 2000، ص.53.

(34) محمود الواعي، **مرجع سبق ذكره**، ص.191

(35) شهرزاد شلبي، **ثورة واحة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن التاسع عشر**، ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2008 ـ 2009، ص.33.

(36) محمد العربي حرزالله ، **مرجع سبق ذكره**، ص ص.224 ـ 230.

(37) إسماعيل حنفوق، **مرجع سبق ذكره**، ص.62.

(38) هناك من يقول أن الشيخ بوزيان، الذي كان يشغل منصب شيخ واحة الزعاطشة ضمن موظفي إدارة الأمير عبد القادر بمنطقة الزيبان ، كان مقدما للطريقة الرحمانية بذات الواحة. يراجع: محمد شرقي مرجع سبق ذكره، ص.231.

(39) إسماعيل حنفوق، **مرجع سبق ذكره**، ص.63.

(40) عبد العزيز شهبي، **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت.ط)، ص ـ ص.131 ـ 130.

(41) محمود الواعي، "**نبذة عن حياة الشيخ الصادق بن الحاج ...**"، ص.192.

(42) محمود الواعي، "**نبذة عن حياة الشيخ الصادق بن الحاج ...**"، ص.193.

(43) مسعود عثماني، **مرجع سبق ذكره**، ص.84.

(44) مسعود عثماني، **مرجع سبق ذكره**، ص.ص.84.85.

(45) صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها**، دار البصائر، الجزائر، 2009، ط.خـ، ص.280.

(46) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، دار البعث، قسنطينة ـ الجزائر، 1980، ص. 226.

(47) يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون ـ الجزائر، 1999، ص. 181 .

(48) محمد العربي حرزالله ، **مرجع سبق ذكره**، ص. 372.

(49) يحي بوعزيز، " **نماذج من مقاومة سكان الواحات** "، **الأصالة**، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر،1977، العدد41، ص ص. 117 ـ 134.

(50) محمد العربي حرزالله ، **مرجع سبق ذكره**، ص. 372.

(51) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ص. ص. 232. 234.

(52) قرية الحمام تقع جنوب غرب مدينة باتنة، وتبعد عنها بحوالي 60كلم، وهي تابعة حاليا لدائرة إشمول ولاية باتنة.

(53) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ص ص.238 ـ 239

(54) عبد الحميد زوزو، **الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي-التطورات السياسية الاقتصادية والاجتماعية (1837/1937)**، ترجمة مسعود حاج مسعود، جـ1، دار هومه، الجزائر، 2005، ص ـ ص.173 ـ 172.

(55) للمزيد من المعلومات حول التنظيم الإداري للإقليم مسرح الأحداث يراجع: مسعود عثماني، **مرجع سبق ذكره**، ص ـ ص.116 ـ 119 .

(56) صلاح مؤيد العقبي، **مرجع سبق ذكره**، ص.27.